

تقدير موقف

تطور الفكر السياسي لحركة حماس "ضرورات الواقع واستحقاقات المبادئ"

إعداد

ناصر خضور

مشارك في البرنامج التدريبي "التفكير الإستراتيجي وتحليل السياسات"

10 تشرين الأول/أكتوبر 2016

صرّح خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية "حماس"، بتاريخ 24 أيلول 2016 في ندوة بعنوان "التحولات في الحركات الإسلامية"، عقدت في العاصمة القطرية، الدوحة، "أخطأنا في تقدرنا بالحكم استناداً إلى مبدأ الفوز بالأغلبية، وكان الأجدى تعزيز الشراكة والتوافق على حساب مبدأ استبدال الآخر"¹. وأضاف "أن حركة حماس تمارس دورها السياسي وفق ضرورات الواقع بشرط عدم تعارضها مع المبادئ"².

يمكن فهم حديث مشعل عن الواقعية السياسية في ضوء سلسلة من الأفعال التي تبنتها الحركة خلال الأعوام الثلاثة الماضية، مثل قبولها بحكومة التوافق الوطني في العام 2014، وموافقتها على خوض الانتخابات البلدية هذا العام 2016، وطرحها لمبدأ القوائم الموحدة، إضافة إلى محاولات الحركة المستمرة لإعادة ترميم علاقاتها الخارجية مع بعض الدول في المنطقة كمصر، وإيران، والسعودية بالرغم من اختلافها معها في العديد من الرؤى السياسية، وأخيراً تعاملها بواقعية إزاء قضية تطبيع العلاقات بين تركيا وإسرائيل.

تتجه حركة "حماس" إلى بلورة فكر سياسي يتسم بالواقعية والعقلانية، ويتمشى مع مصالح الحركة على المستوى الفلسطيني الداخلي، ويمنحها القدرة والمرونة في صياغة علاقات خارجية متوازنة في ظل المتغيرات في الشرق الأوسط والمحيط العربي والإسلامي، ويعود هذا إلى عدد من العوامل التي تساهم في تطور الفكر السياسي للحركة.

ميثاق حركة "حماس" والرؤية الأممية

يتحدث ميثاق حركة "حماس" عن جملة من المبادئ والأسس المرتبطة بالعقيدة الإسلامية وفكر جماعة "الإخوان المسلمين" ذي الرؤية الأقرب إلى مفهوم "الأمة الإسلامية". فيغيب عن الميثاق مفهوم "الدولة الوطنية" ومصالح الشعب الفلسطيني بوصفه شعباً له أهداف مستقلة. فهو يعرف الحركة بأنها "حركة

عالمية"، "بعدها المكاني" في أية بقعة يوجد بها مسلمون، بهدف "إعلان قيام دولة الإسلام على أرض فلسطين" و"نصرة المستضعفين في أي مكان تصل إليه الحركة".³

ولا يتطرق الميثاق إلى علاقات "حماس" الخارجية إلا من زاوية عدم التعاطي مع أي دولة تدعم الاحتلال الإسرائيلي. ويؤمن الميثاق بعدم جدوى أية "مبادرات أو مؤتمرات سلمية" ويصفها "بالمؤامرات الدولية". أما الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، فهو "الجهاد" كونه "فرض عين وواجب على كل مسلم".⁴

تكمن المعضلة في هذا الميثاق أنه قد يشكّل عائقاً أمام علاقات الحركة الخارجية والدولية. ويشير ناصر الدين الشاعر، المقرب من "حماس"، ونائب رئيس الوزراء الفلسطيني في حكومة "حماس" العاشرة (2006-2007)، إلى أن الميثاق عبارة عن "خطاب وتوجيه ديني دعوي ... وليس ميثاقاً سياسياً بالمعنى الكامل"، واعتُمد في سياق فترة زمنية معينة من عمر الحركة "لم تتعد أوائل التسعينيات من القرن العشرين". بالتالي، فإن الحركة "توقفت عن طباعته". ومن وجهة نظره فإن "إسرائيل" هي المستفيدة من هذا الميثاق وتسعى من خلاله إلى "التحريض على حماس" دولياً.⁵

الجمع بين الحكم والمقاومة

تمكّنت "حماس" من السيطرة على قطاع غزة بعد عام على فوزها في الانتخابات التشريعية العام 2006. فوجدت نفسها في بيئة معادية لها، وتحت وطأة حصار سياسي واقتصادي إقليمي ودولي، بسبب عدم موافقتها على شروط اللجنة الرباعية الدولية، التي كان أهمها الاعتراف بإسرائيل.

لم تستطع "حماس" تحقيق ما التزمت به في برنامجها الانتخابي حول توفير الخدمات الاجتماعية العامة للمواطن الفلسطيني، في مجالات الصحة والتعليم والضمان الاجتماعي،⁶ وفيما يتعلق بالماء والكهرباء، وانعكاسهما على كافة جوانب الحياة، وعلاوة على ذلك ارتفع معدل البطالة من 30% العام 2007 إلى 42% في العام 2015.⁷ كما لم تستطع توفير رواتب كاملة ومنتظمة لنحو 40 ألف موظف، أكثر من نصفهم يعملون في قطاعات خدمية داخل قطاع غزة.⁸

تشكل هذه الظروف المعيشية حالة من الضغط المستمر على حركة "حماس" لإيجاد حلول تساهم في تخفيف الأزمة المعيشية في القطاع، لا سيما في ظل إغلاق معظم الأنفاق التي تربط بين رفح المصرية وقطاع غزة، والتي شكلت في مرحلة من المراحل ممراً لنقل البضائع والأموال إلى داخل غزة⁹. وكذلك في ظل انعدام فرصة فك الحصار عن طريق مواجهة عسكرية كما حدث في حرب غزة 2014، لعدم وجود بيئة سياسية متوازنة وداعمة يمكن من خلالها استثمار أي جهد عسكري يبذل من قبل الحركة في مواجهة إسرائيل. فلم يعد هناك مجال أمام "حماس" سوى التعامل مع كافة الخيارات الممكنة، داخلياً وخارجياً، من أجل تخفيف الحصار، وتجنب تدهور شعبية الحركة في قطاع غزة.

تراجع الرهان على جماعة الإخوان المسلمين

متّلت أحداث "الربيع العربي" وإرهاصات تجربة عميقة في الفكر السياسي لحركة "حماس". فقبل هذه الأحداث، كانت علاقات الحركة تدور في محورين رئيسيين: الأول تقوده إيران، ويضم سوريا وحزب الله و"حماس"، وتقترب منهم جماعة الإخوان المسلمين، وقطر، وتركيا. أما محور "الاعتدال" فتشكّل من مصر، والسعودية، والأردن، وكان لهذه الدول علاقات تواصل دائم مع "حماس"، حتى في ظل غياب رؤى مشتركة مع الحركة.

على إثر اشتعال الحراك الثوري في كل من مصر، وتونس، وسوريا، واليمن، عبّرت "حماس" عن موقفها الداعم لخيار الشعوب في تحقيق الحرية والكرامة، ولاحقاً لتمهّد الطريق "لتحرير فلسطين"¹⁰. فخسرت دعم حلفائها في سوريا وإيران باعتبار موقف الحركة كان داعماً للثورة ضد النظام السوري، فوجدت "حماس" في جماعة الإخوان المسلمين وفوز محمد مرسي برئاسة الجمهورية (2012-2013) بديلاً أقرب لفكرها الديني والسياسي باعتبارها امتداداً أيديولوجياً للإخوان¹¹.

ومع توالي التطورات في مصر وانهايار حكم "الإخوان المسلمين" وتراجع الفكر الثوري في دول "الربيع العربي"، سعت "حماس" إلى اعتماد مبدأ عدم التدخل في شؤون الدول وخصوصياتها، وحاولت تعزيز

اقتربها أكثر من الشأن الفلسطيني الداخلي ومصالحه الوطنية، بعيداً عن النظرة الأممية التي طغت في بداية "الربيع العربي"، مما يمكن أن يعطي الحركة قدرة أكبر على المناورة السياسية وإعادة التوازن إلى علاقاتها في الإقليم.

رؤية الحركة لمفهوم الدولة والمصالح الوطنية

بالرغم من عدم إقدام "حماس" على تعديل ميثاقها لظروف داخلية خاصة بقاعدتها، أو خوفاً من أن يفسر ذلك على أنه تنازل عن الثوابت والمبادئ التي أسست عليها الحركة، إلا أنه يمكن فهم مقدار التطور الفكري الذي طرأ على رؤية الحركة ونظرتها لكيفية إدارة علاقاتها الخارجية، والقضايا الوطنية الداخلية، من خلال بعض النصوص الأدبية لقادتها الحاليين.

ترى "حماس" أن "قاعدة المصالح لها تستند إلى مصالح الشعب الفلسطيني وقضيته"، وأن علاقاتها الخارجية يجب أن تدار وفق منطلقات وطنية فلسطينية ذات صلة بالتحريك وحق تقرير المصير، على أساس التعامل بعقلانية مع القضايا السياسية. يقول أسامة حمدان مسؤول العلاقات الخارجية في الحركة (2009-2013) "إن "حماس" تتعامل مع الواقع بكل مكوناته، ومع احتياجات العمل السياسي بتفاصيله، دون تعارض مع منظومة القيم والأخلاق... وأن العامل الأساسي في العلاقات الدولية هو إمتلاك القوة على الأرض".¹²

يعتبر حمدان أنّ "الكيان الصهيوني هو العدو الوحيد"، لذا يجب البحث عن نقاط الالتقاء مع القوى الدولية الأخرى وتعزيزها، مهما كانت التباينات والاختلافات معها في المواضيع والمواقف غير المتصلة بمصالح الشعب الفلسطيني، وحتى لو كانت هذه القوى تدعم الاحتلال الإسرائيلي، مع احتفاظ الحركة باستقلالية قرارها وعدم توظيفها سياسياً من قبل القوى الدولية الأخرى.¹³ وكما يلاحظ فإن هذا التصور مختلف عمّا ورد في ميثاق حركة "حماس" أعلاه.

في إطار ذلك، تسعى "حماس" قدر الإمكان إلى "المحافظة على علاقاتها مع مؤسسات الدول الرسمية وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية ... من دون أن تكون علاقاتها مع طرف ما على حساب الطرف الآخر"¹⁴. وهذا يعكس مدى تقبل الحركة لمفهوم مصالح الدول بعيداً عن الفكر الأيديولوجي الذي عبّرت عنه في ميثاقها.

السلوك السياسي لـ "حماس"

تُدرِك "حماس" أنه لا يمكنها الرهان بشكل مطلق على أي طرف إقليمي كما كان في السابق، كما لا يمكنها أن تُحسب على طرف ما دون الآخر. فمصالح الدول تتغير بشكل سريع، وفق معطيات جديدة في ظل حالة سياسية راهنة معقدة، وتتنافس بين القوى الرئيسية في المنطقة، عدا عن تحول الصراع في جزء منه إلى صراع طائفي، إذ تسعى كل دولة إلى استثمار أية فرصة لتعزيز مشروعها ودورها على حساب المشروع المقابل.

ترتبط "حماس" بعلاقات قوية مع تركيا التي يحكمها حزب ذو توجه إسلامي، إذ يقيم فيها بعض قادة الحركة، وسبق أن كانت مركز إقامة عضو مكتبها السياسي صالح العاروري. إن إقدام تركيا على إعادة تطبيع علاقاتها مع إسرائيل بعد قطيعة دامت ست سنوات لاقى تفهماً من قبل "حماس" باعتباره شأنًا داخلياً يقع ضمن ضرورات ومصالح الدولة التركية.¹⁵ بل طالبت الحركة أن يُستثمر هذا في الضغط على إسرائيل من أجل فك الحصار على قطاع غزة وتحقيق مصالح فلسطينية،¹⁶ بالرغم من أن الاتفاق شكّل خيبة أمل لعدم تضمنه شرط فك الحصار عن قطاع غزة.

تسعى "حماس"، الآن، لإعادة التوازن إلى علاقاتها مع دول مركزية في المنطقة، تربطها بها مصالح مباشرة كمصر، والسعودية، وإيران. فمصالح "حماس" في قطاع غزة تجبرها على التعامل مع النظام المصري الحالي بعيداً عن سياق "المظلومية" التي وقعت على جماعة "الإخوان المسلمين" والرئيس مرسي.

ولا تتجاهل "حماس" أن مصر هي العنوان الأول لتخفيف الحصار المفروض على قطاع غزة وفتح معبر رفح، وهي أيضاً طرف مهم في أي مفاوضات غير مباشرة متوقعة بين الحركة والجانب الإسرائيلي فيما يتعلق بالجنود الأسرى لديها. وبالرغم من عدم حدوث تقدم حقيقي في العلاقة مع مصر، إلا أن الحركة فتحت باب الحوار عبر نافذة المخابرات المصرية.¹⁷

أما بخصوص العلاقات مع المملكة العربية السعودية، فقد صرّح عزام التميمي، أحد المقربين من حركة "حماس"، نقلاً عن خالد مشعل "إن الحركة بادرت إلى فتح قناة تواصل مع القيادة السعودية الجديدة، مباشرة بعد تولي الملك سلمان بن عبد العزيز الحكم"،¹⁸ الذي يسعى إلى تجنيد كافة الطاقات "السنية" في المنطقة لمواجهة المشروع الإيراني باعتباره الخطر الحقيقي على المملكة ومنطقة الخليج العربي.

وقد أثمرت هذه المحاولات عن عقد لقاء بين مشعل والملك السعودي، وولي ولي عهده الأمير محمد بن سلمان، وأدت إلى إفراج السلطات السعودية عن معتقلين مقربين من "حماس"، إضافة إلى الضغط على مصر من أجل إلغاء قرار اعتبار "حماس" حركة إرهابية، والتوسط لقادة الحركة لاحقاً لزيارة القاهرة ولقاء جهاز المخابرات العامة المصري.¹⁹

وأما بالنسبة لإيران التي سعت دائماً للاستثمار السياسي في القضية الفلسطينية، بصفتها قضية محورية في الشرق الأوسط، وبالرغم من توقف الدعم المالي السياسي المقدم من إيران للحركة، إلا أن "حماس" ما زالت تقيم علاقات معها عبر جهازها العسكري وقيادة الحركة في غزة ولبنان. لكن، على ما يبدو فإن تحسن العلاقة بين "حماس" وإيران مرتبط أكثر بما ستؤول إليه نتائج الانتخابات الداخلية المقبلة لحركة "حماس"، التي ستفرز قيادة جديدة على مستوى رئاسة المكتب السياسي للحركة.

تعاملت "حماس" على الصعيد الفلسطيني الداخلي بنوع من المرونة بعد أحداث "الربيع العربي"، من خلال الموافقة على استقالة حكومتها في غزة، والموافقة لاحقاً على المشاركة في الانتخابات البلدية لسنة 2016. يقول إسماعيل هنية، نائب رئيس المكتب السياسي لحماس، "إن أولوية الحركة إلى جانب المقاومة هي الاستمرار في بناء المؤسسات الفلسطينية على قواعد وأسس وطنية".²⁰

ماذا بعد؟

يُتوقع أن تستمر "حماس" في سعيها لإيجاد اختراق في الشأن الداخلي من خلال المشاركة المباشرة أو غير المباشرة في أي انتخابات برلمانية أو رئاسية قادمة إن أتيحت لها فرصة ذلك، خصوصاً في ظل الحديث الدائر عن بديل للرئيس محمود عباس. الأمر الذي سيكسبها الشرعية الداخلية والخارجية. وستسعى إلى ترميم علاقاتها مع الدول التي ترتبط معها بمصالح مشتركة، مثل مصر وإيران، على قاعدة عدم التدخل في أجندات هذه الدول وأمنها الداخلي أو الخارجي.

لا شك أن الرؤية السياسية والفكرية لحركة "حماس" تطورت باتجاه الانفتاح أكثر في علاقاتها الخارجية، إقليمياً ودولياً، على قاعدة الأولوية لمصالح الحركة من الناحية الوطنية الفلسطينية، وتعزيز أمنها الداخلي بعيداً عن التصور الأممي السابق. لكن، تبقى عوامل من شأنها الحد من هذا النهج، كتنامي ظاهرة الطائفية في المنطقة، وانتقال العلاقات بين إسرائيل وبعض الدول العربية إلى مستوى أعلى، إضافة إلى أي مدى تنجح الحركة في الحفاظ على وحدة مواقفها الداخلية، وضبط أي رؤى أخرى في ظل خروج قيادات تاريخية أمنية وعسكرية من السجن تتمتع بثقل كبير داخل أطر الحركة.

الهوامش

¹ كلمة خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحركة "حماس"، ندوة بعنوان التحولات في الحركات الإسلامية"، الدوحة، 2016/09/24

https://www.youtube.com/watch?v=3eW6T_eiN0M

² المصدر السابق.

³ ميثاق حركة حماس. [http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/0b4f24e4-7c14-4f50-a831-](http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/0b4f24e4-7c14-4f50-a831-ea2b6e73217d)

[ea2b6e73217d](http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/0b4f24e4-7c14-4f50-a831-ea2b6e73217d)

⁴ المرجع السابق.

⁵ تصريح ناصر الدين الشاعر، مقابلة تلفزيونية، تلفزيون جامعة النجاح الوطنية، 2016/04/6.

<https://vimeo.com/167521285>

⁶ البرنامج الانتخابي لحركة حماس عن سنة 2006، موقع كتلة الإصلاح والتغيير البرلمانية التابعة لحركة حماس

<http://www.islah.ps/new2/?news=128>

⁷ الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني - [http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_Rainbow/Documents/unemployment-](http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_Rainbow/Documents/unemployment-2015-01a.htm)

[2015-01a.htm](http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_Rainbow/Documents/unemployment-2015-01a.htm)

⁸ تصريح زياد الظاظا، مسؤول مالية حركة حماس في غزة، وكالة أمد للإعلام. <https://www.amad.ps/ar/Details/25565>

⁹ الجيش المصري يعلن تدمير 521 فتحة نفق، صحيفة فلسطين. <http://felesteen.ps/details/news/139574>

¹⁰ خطاب إسماعيل هنية في مهرجان انطلاقه حماس الرابعة والعشرين، موقع فلسطين اليوم.

<https://paltoday.ps/ar/post/125361>

¹¹ ميثاق حركة حماس، مرجع سابق.

¹² أسامة حمدان، "العلاقات الدولية لحركة حماس"، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2015، ص535-

<http://www.alzaytouna.net/wp-content/plugins/extrawatch-554>

[pro/components/com_extrawatch/extrawatch.php?origin=frontend&task=ajax&action=download&env=](http://www.alzaytouna.net/wp-content/plugins/extrawatch-554)

[ExtraWatchWordpressEnv&file=arabic/data/attachments/BooksZ/Book_Hamas_Thought_Experience/](http://www.alzaytouna.net/wp-content/plugins/extrawatch-554)

[Hamas_Thought_Experience_CH16.pdf](http://www.alzaytouna.net/wp-content/plugins/extrawatch-554)

¹³ المرجع سابق، 535- 554

¹⁴ المرجع سابق، ص 535- 536.

¹⁵ تصريحات أحمد يوسف بشأن الاتفاق التركي الإسرائيلي، موقع فلسطين اليوم، 2016/7/27. <https://paltoday.ps>

¹⁶ تصريح صحفي لحركة حماس، الموقع الرسمي لحماس، 2016/6/27. <http://hamas.ps/ar/post/5678>

¹⁷ تصريح خليل الحية عضو المكتب السياسي، الموقع الرسمي لحماس، 2016/04/3 <http://hamas.ps/ar/post/5220>

¹⁸ تصريح عزام التميمي أحد المقربين من حركة "حماس" في مقابلة على قناة "مكلمين"، 2016/07/31

<https://www.youtube.com/watch?v=0RidEsAqSTs>

¹⁹ تصريح أحمد يوسف، وكالة معا للأخبار، 2016/06/29. <https://www.maannews.net/Content.aspx?id=834296>

²⁰ إسماعيل هنية، قراءة في الرؤية وتجربة الحكم، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2015، ص 481.

http://www.alzaytouna.net/wp-content/plugins/extrawatch-pro/components/com_extrawatch/extrawatch.php?origin=frontend&task=ajax&action=download&env=ExtraWatch Wordpress Env&file=arabic/data/attachments/BooksZ/Book_Hamas_Thought_Experience/Hamas_Thought_Experience_CH13.pdf